المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
International Journal of Humanities and Social Sciences
website:www.ijohss.com
Email:editor@ijohss.com
ISSN: 2415 – 4822
العدد (18) يناير 2021
Volume (18) January 2021
IJOHSS

موقعُ المُشير الاجتماعيّ في مُعطيات التشكُّل البيانيّ عند الجاحظ

م.م. عمار إحسان عبد الله الخزاعي
العراق
البريد الإلكتروني : ammarihsan86@gmail.com

أ.د. لطيف حاتم عبد الصاحب الزامليَّ
العراق

الملخص

أُتيح للإنسان –بحسب الجاحظ- مجموعة من الوسائل البيانية/ الدلالية/التواصلية ، تمكّنه من التعبير عن حاجاته ، ومن ثمّ إنجاز فعل البيان ، من بيان لغويّ يتمثّل باللفظ ، وبيان غير لغويّ / غير لفظيّ ، يتمثل بالإشارة والخطّ والعقد والنصبة ، وفيما نزعُم في هذا البحث أنّ هذه الأصناف / الوسائل البيانيّة بُنيت عند الجاحظ على مجموعة من المعطيات المشكِّلة لِفعل البيان ، ومن أهمّ هذه المعطيات هو معطى المشير الاجتماعي ، بل إنَّ المشير الاجتماعيّ هو الذي يمثل مشروعية المعطيات الأخرى في تشكيل الفعل البياني عند الجاحظ ؛ وذلك بالرصد الذي أقامه الجاحظ في بابين متتابعين في الجزء الأول من كتابه (الحيوان) ، يثبت تتابعهما –مبدئيّاً- قراءة الجاحظ التداولية لأساليب التواصل البياني ، وفقاً لأبعاد المشيرات الاجتماعية ، هما : باب (كون الاجتماع ضرورياً) ، وباب (البيان ضروري للاجتماع) ، فهذا التتابع عند الجاحظ ينضوي على قصدٍ يتمثّل في تجسير العلاقة بين الأنشطة الإنسانية المتمثلة في التعبير عن الحاجات المادية ، والنفسية ، والفكرية ، وبين البيان ووسائله التواصلية ، المنطوية تحت أبعاد المشيرات الاجتماعية .

الكلمات المفتاحية: المشير الاجتماعي، الجاحظ، التشكيل البياني.

DOI: 10.33193/IJoHSS.18.2021.181

المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
International Journal of Humanities and Social Sciences
website:www.ijohss.com
Email:editor@ijohss.com
ISSN: 2415 – 4822
العدد (18) يناير 2021
Volume (18) January 2021
IJOHSS

The Position of the Social Counselor in the Data of the Formation of Al-Jahidh

Lect. Ammar I. Abdullah Al-Khuzai
Iraq
Email: ammarihsan86@gmail.com

Prof.Dr.Latif H. Abdel-Saheb Al-Zamili
Iraq

ABSTRACT

According to Al-Jahidh, a person has been provided with a set of indicative / semantic / communicative means, which enable him to express his needs, and then to complete the verb of the statement, from a linguistic statement represented by the verb, and a non-linguistic / non-verbal statement, represented by the sign, the line, the complex and the accusative, and what you insist in this The research is that these graphic types / means are built upon Al-Jahidh on a set of data that form the verb of the statement, and among the most important of these data is the data of the social cursor, rather it is the social cursor that represents the legitimacy of the other data in the formation of the graphic action of al-Jahidh. And that by the observation that Al-Jahidh established in two consecutive chapters in the first part of his book (The Animal), which proves their succession - in principle - Al-Jahidh's deliberative reading of the methods of graphic communication, according to the dimensions of social mirrors, namely: chapter (The meeting is necessary) and the chapter (the statement is necessary for the meeting) For Al-Jahiz, this sequence contains the intention of bridging the relationship between human activities represented in the expression of material, psychological, and intellectual needs, and between the statement and its means of communication, which fall under the dimensions of social prescriptions.

Keywords: social counselor, bigeye, graphic formation.

DOI: 10.33193/IJoHSS.18.2021.181

المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
International Journal of Humanities and Social Sciences
website:www.ijohss.com
Email:editor@ijohss.com
ISSN: 2415 – 4822
العدد (18) يناير 2021
Volume (18) January 2021
IJOHSS

المقدمة

حظِيَ المشير الاجتماعيّ بعناية بالغة من لدُن اللسانيين عموماً ، المنشغلين بالبحث التداولي على وجه الخصوص ، الذين جعلوا الاشتغال عليه علماً قائماً بنفسه ، اصطلحوا عليه بـ(علم اللغة الاجتماعي sociolinguistics)، وأجمعوا على تعريفه بأنّه : ((دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع))[1] ، بوصف اللغة – بمشيراتها اللفظية وغير اللفظية- فعلاً تواصلياً منجَزاً تحت أعراف اجتماعية ، وعادات ثقافية ، وغيرها من موجهات المعنى المتّصل بالمشيرات الاجتماعية ، وتُقاس كفاية الخطاب التواصلية بناءً على كيفية استعمال اللغة في التفاعلات الخطابية ، التي تقررها المشيرات الاجتماعية ، فكفاية الخطاب –بحسب الاتجاه التداوليّ- لا تُبنى على أساس المعرفة اللغويّة (الصوتية ، والصرفية ، والنحوية ، والمعجمية) فحسبُ ، وإنما تُبنى أيضاً على مراعاة التناسب بين الإنجاز اللغوي ومجموعة المشيرات الاجتماعية الحافّة بالعملية التواصلية ، ((فالمجتمع يتحكم بالكلام بطريقتين ، أوّلاً : عن طريق تحديد مجموعة من المعايير norms ، نتعلّم كيفية الالتزام بها بمهارة ... ثانياً : يوفّر المجتمع الدوافع motivation الضرورية لحثّنا على الالتزام بهذه المعايير))[2] ، ومعنى ذلك أن العملية التواصلية اللفظية وغير اللفظية تبقى مرهونة بالمشيرات الاجتماعية ، وفقاً لقوانين الخطاب الناجح والفعّال ، ومن ثَمّ فإنّ أيّ خروج على هذه المشيرات الاجتماعية المحددة في بيئة لغوية معينة يُعدّ فشلاً تواصلياً / تداوليّاً ، يمنع الفعل التواصلي من تحقيق أهدافه التخاطبيّة[3] .

إذا كان الأمر كذلك ، فلا بدّ من السؤال عن موقع المشير الاجتماعي في المعطيات المشكّلة للبيان اللغوي بصورة خاصة ، وفي الفعل البياني صورة عامة، بوصفه –أي المشير الاجتماعي- فاعلاً دلاليّاً- مُلزماً وموجّهاً ، لكلّ مَن رامَ تحقيق فعل بياني / تواصلي ناجح وفعّال ، والذي نعنيه بالمعطيات محاولة ضبط المشير الاجتماعي في جوهر الفعل البياني عند الجاحظ ، انطلاقاً من تجسّده الفعلي في التواصل اللغويّ ، وغير اللغويّ ، وهو ما يفضي إلى البحث عن معطيات التشكل البيانيّ بوصفها معطىً مدركاً بالحسّ والعقل ؛ لأنّ التشكل يقتضي خروج البيان من حيز الوجود المجرّد ، إلى حيز المعطى المتلابس مع الموجودات الأخرى[4] ، ومن ثَمّ محاولة ضبط موقع المشير الاجتماعي في هذه المعطيات المشكّلة للبيان بصورة عامّة عند الجاحظ ، فالمعطيات –إذن- التي نسعى إلى مقاربتها في هذا البحث هي : جملة الركائز الفعلية التي تُجسّد فعل البيان في العملية التواصلية عند الجاحظ ، مع محاولة ضبط المشير الاجتماعيّ ، وموقعه ، وتأثيره في المعطيات الأخرى عند الجاحظ .

وقد أُتيح للإنسان –بحسب الجاحظ- مجموعة من الوسائل البيانية/ الدلالية/التواصلية ، تمكّنه من التعبير عن حاجاته ، ومن ثمّ إنجاز فعل البيان ، من بيان لغويّ يتمثّل باللفظ ، وبيان غير لغويّ / غير لفظيّ ، يتمثل بالإشارة والخطّ والعقد والنصبة ، وفيما نزعُم في هذا البحث أنّ هذه الأصناف / الوسائل البيانيّة بُنيت عند الجاحظ على مجموعة من المعطيات المشكلة لفعل البيان ، ومن أهمّ هذه المعطيات هو معطى المشير الاجتماعي ، بل إن المشير الاجتماعيّ هو الذي يمثل مشروعية المعطيات الأخرى في تشكيل الفعل البياني عند الجاحظ ؛ وذلك بالرصد الذي أقامه الجاحظ في بابين متتابعين في الجزء الأول من كتابه (الحيوان) ، يثبت تتابعهما –مبدئيّاً- قراءة الجاحظ التداولية لأساليب التواصل البياني ، وفقاً لأبعاد المشيرات الاجتماعية ، هما : باب ((كون الاجتماع ضرورياً))[5] ، وباب ((البيان ضروري للاجتماع))[6] ، فهذا التتابع عند الجاحظ ينضوي على قصدٍ يتمثّل في تجسير العلاقة بين الأنشطة الإنسانية المتمثلة في التعبير عن الحاجات المادية ، والنفسية ، والفكرية ، وبين البيان ووسائله التواصلية ، المنطوية تحت أبعاد المشيرات الاجتماعية .

أوّلاً: في البيان اللُّغويّ:

لا مندوحة من الاعتراف –أوّلاً وقبل كلّ شيء- بأنّ الإنسان كائن اجتماعيّ ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن نتصور الإنسان فرداً مجرّداً يحيى في عزلةٍ تامّة ، ولو افترضنا ذلك الإنسان كذلك ، ثمّ حاولنا –استدلاليّاً- وصف قيمه الاعتبارية المشتمل عليها ، من نحو : عدالته ، وصدقه ، وشجاعته ، ووفائه ، وكرمه ، وغيرها ، لوجدنا أن هذه القيم لا يوجد لها تجسيد فعلي في إنجازه الفرديّ؛ لأنها –أي القيم- نتاجٌ لعلاقة ذات الإنسان بالذوات الأخَر ، وهذا يعني –من جملة ما يعني- أنّ كينونة الإنسان تتجسد في مجتمعه الذي يمثل امتداده الإنساني ، هذا الامتداد المبنيّ –أصالةً- على الحاجة ؛ فالإنسان إنما هو كائن اجتماعيّ بسبب حاجته الدائمة للتعبير عن أبعاده النفسية ، والمادية ، والفكرية ، وهذا ما عبّر عنه الجاحظ في باب (كون الاجتماع ضروريّاً) ، بقوله : ((ثُمَّ

DOI: 10.33193/IJoHSS.18.2021.181

المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
International Journal of Humanities and Social Sciences
website:www.ijohss.com
Email:editor@ijohss.com
ISSN: 2415 – 4822
العدد (18) يناير 2021
Volume (18) January 2021
IJOHSS

اعْلَم، رحِمَكَ الله تعالى ، أنّ حاجة بعض الناس إلى بعض ، صفةٌ لازمةٌ في طبائعهم ، وخِلقةٌ قائمةٌ في جواهرِهم ، وثابتةٌ لا تُزايِلُهم ، ومحيطةٌ بجماعتِهم ، ومشتملةٌ على أدناهم وأقصاهم))[7] ، والمتأمّل في هذا النصّ يمكن أن يفهم الآتي :

1- أنّ الإنسان مدفوع بفعل الحاجة أنْ يكون اجتماعيّاً ، فمفهوم الحاجة يمارس عند الجاحظ ضغطاً على الإنسان ؛ لإقامة فعل تواصليّ يتّصف بالبيان .

2- هذا التعليل الذي ساقه الجاحظ لاجتماعيّة الإنسان يصدُر عن مرجعيّة كلاميّة ، تتمثل في واحدة من أهمّ مسائل الفكر والجدَل الدينيّ ، هي مسألة (الجبر ، والتفويض)[8] ، فهي في جانبها الكلامي متّصلة بقضية (الطبع ، والجوهر) ، وكون الإنسان في جوهره كائناً اجتماعياً ، يقتضي كونه مطبوعاً خلقةً على الحاجة ، ومجبوراً على التعبير عنها .

بما أن الإنسان –في جوهره- مطبوعٌ على الحاجة ، فهذا يعني خلقها منذ اللحظة الأولى التي خُلِق فيها الإنسان ، فتمثّلت في فطرته وتأصّلت فيه ، فهي –أي الحاجة- اتصلت بالإنسان اتصالاً وجوديّاً لا فكاك منه ، جعلت ارتباطه الاجتماعيّ أمراً لا مناص عنه ؛ لذلك قال الجاحظ : ((لم يخلق اللهُ تعالى أحداً يستطيعُ بُلوغَ حاجتِه بنفسه دون الاستعانة ببعض مَنْ سخَّر له ، فأدناهُم مُسَخّر لأقصاهم ، وأجلُّهم مُيَسّر لأدقّهم . وعلى ذلك أخْوَجَ الملوكَ إلى السُّوقَة في بابٍ ، وأحوجَ السُّوقَةَ إلى الملوك في بابٍ ، وكذلك الغنيّ والفقير ، والعبدُ وسيِّدُه))[9] .

يدلّنا الفهم السابق أنّ الإنسان عند الجاحظ على اختلاف درجات المشيرات الاجتماعية المتصلة بمستواه الاجتماعيّ ، والثقافيّ ، ومركزه الاجتماعيّ ، فهو منضوٍ تحت مفهوم الحاجة ، ومن ثَمّ يمكن القول إنّ المعطى الأول من معطيات التشكّل البيانيّ عند الجاحظ ، هو الحاجة ، بما تفرضه على الإنسان من ضغوطٍ نفسيّة ، وعقليّة ، ومادّيّة ، تدفعه لإقامة فعل البيان ، ولا بدّ لإقامة هذا الفعل من وسيلة تمكّن الإنسان من تحقيق اجتماعيّته ؛ لذلك ذكر الجاحظ في باب (كون الاجتماع ضرورياً) ، باب (البيان ضروري للاجتماع) ، وعرّف البيان في هذا الموضع بقوله : ((وهو البيان الذي جعلَه الله تعالى سبباً فيما بينهم ، ومعبِّراً عن حقائق حاجاتهم))[10] ، ومن أهمّ أساليب البيان عند الجاحظ هي اللغة ، فهي وسيلة من وسائل التعبير عن الحاجة ، بل إنّ الحاجة من أهمّ الأسباب في تعلّم اللغة ، وفي ذلك يقول الجاحظ : ((إنّ من أعونِ الأسباب على تعلّم اللغة فرط الحاجة إلى ذلك . وعلى قدْر الضرورة إليها في المعاملةِ يكون البلوغُ فيها والتقصير عنها))[11] . يقدّم لنا هذا النصّ –بالقياس مع النصوص السابقة- أساساً مبدئياً لفهم تشكل البيان اللغوي عند الجاحظ ، فما دام الاجتماع البشريّ القائم على الحاجة هو أصل الوجود الإنسانيّ ، فإنّ البيان اللغوي هو أصل الاجتماع البشريّ ، ومن ثَمّ يكون البيان اللغويّ هو أصل الوجود الإنسانيّ عند الجاحظ ، فالحاجة الاجتماعية المُحدِّدة لوجود الإنسان ستنعكس على البيان اللغوي في شكله الوظيفيّ القائم على التواصل والتعبير عن الحاجة ، وعندها تكون اللغة فعلاً بيانياً، هدفُه دمج الفرد في المجتمع[12] .

ولا يقصد الجاحظ بالبيان اللغوي الجانب الصوتي منه ؛ لأنّ قصداً كهذا يدفعنا للاعتراف بالبيان اللغوي عند الحيوانات الأخرى ، التي تشترك مع الإنسان في التمظهر الصوتيّ القائم –لا محالة- على الحاجة أيضاً ، فيكون حدّ أرسطو للإنسان بأنّه : ((حيَوانٌ ناطق))[13] فاقداً لمانعيّته ؛ لدخول باقي الأنواع الحيوانية الأخرى في فصل النطق ؛ لذلك نجد الجاحظ يقف في أكثر من موضع في مؤلّفاته مُفرّقاً بين لغة الإنسان ولغة الحيوانات الأخرى ، بقوله : ((وزعمَ صاحب المنطق أنّ كلّ طائرٍ عريض اللّسان ، فالإفصاح بحروف الكلام منه أوجد . ولابنِ آوى صياحٌ يُشبه صياح الصبيان . وكذلك الخِنزير . وقد تهيّأ للكلب مثلُ : عَفْ عَفْ ، و وَوْ وَوْ ، وأشباه ذلك . وتهيَّأ للغراب القاف . وقد تهيَّا للهزاردَسْتان وهو العندليب ألوانٌ أُخر ، وقد تهيَّأ للببغاء من الحروف أكثر ، فإذا صرْتَ إلى السنانير وجدتها قد تهيَّأ لها من الحروفِ العددُ الكثير ، ومتى أحبَبتَ أن تعرِفَ ذلك فتسمّعْ تجاوُبَ السنانيرِ وتوعُّدَ بعضها لبعض في جوف الليل ثم احصِ ما تسمعه وتتبَّعْه وتَوَقَّفْ عنده ؛ فإنك ترى من عدد الحروف ما لو كان لها من الحاجات والعقولِ والاستطاعات ثَمّ ألْفَتْهَا لكانت لغة صالحة الموضع))[14] .

يُفهم من هذا النصّ –على طوله- أنّ خاصية الصوت التي يشترك فيها الإنسان مع الحيوانات الأخرى لا تُعَدّ عند الجاحظ معطىً من معطيات تشكّل البيان اللغوي ؛ ففعل التلفظ بمجموعة من الأصوات عند الجاحظ لا يدلّ على فعلٍ لغويٍّ منجَز ، وظيفتُه البيان ؛ لإقامة فعل التواصل ، بل تتحول الأصوات إلى أفعال بيانية لغويّة عند الجاحظ (ما إنْ كان لها من الحاجات والعقول والاستطاعات ثمّ ألّفَتْها لكانت لغةً صالحةَ الموضع) . يكشف هذا

DOI: 10.33193/IJoHSS.18.2021.181

المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
International Journal of Humanities and Social Sciences
website:www.ijohss.com
Email:editor@ijohss.com
ISSN: 2415 – 4822
العدد (18) يناير 2021
Volume (18) January 2021
IJOHSS

النصّ –المهمّ جدّاً- في فكر الجاحظ البيانيّ أنّ تشكل البيان اللغوي –الإنسانيّ- ينضوي على أربعة معطيات ، هي : (الحاجة ، والعقل ، والاستطاعة ، والتآلف) ، والمتمعّن لصياغة الجاحظ للمعطى الأخير بأسلوب التراخي ، باستخدامه الأداة (ثُمَّ) ، بقوله: (ثُمَّ أَلَّفَتْها لكانَت لغةً صالحة الموضع) ، يجد أن معطى التآلف يمثل عند الجاحظ معياراً لما أنجزته المعطيات الثلاثة السابقة ، من جهة إصدار الصوت وتحوّله إلى فعل بياني لغوي . ولنأتِ إلى تفصيل هذه المعطيات في فكر الجاحظ وفقاً للآتي :

1- مُعطى الحاجة : إنّ الحاجة عند الجاحظ –كما مرَّ قبل قليل- معطىً يدفع الإنسان نحو المجتمع ، فالأصل في اجتماعية الإنسان عند الجاحظ هو التعبير عن مجموعة الحاجات العاديّة ، والنفسيّة ، والعقليّة ، بل إن قدرة المتكلم اللغوية تُقاس عند الجاحظ بإفهام المخاطَب حاجته ، من دون المتاعب التي تُصيب الاستعمال اللغوي ؛ لذلك قال الجاحظ : ((كلُّ مَنْ أفهَمَكَ حاجتَهُ من غير إعادةٍ ولا حُبْسةٍ ولا استعانةٍ فهو بليغ))[15] ، كما أنّ التعبير عن الحاجة عند الجاحظ لا بدّ من أن يكون تحت معيار المشيرات الاجتماعية المتداولة ، في بيئة لغوية واحدة ؛ لأنّ ((إفهامَك العربَ حاجتَك على مجاري كلام العرب الفُصحاء . وأصحابُ هذه اللغة لا يفقهون قول القائل منّا : "مُكرَهٌ أخاكَ لا بطَل" ، "إذا عَزَّ أخاك فَهُنْ" . ومَن لم يفهم هذا لم يفهم قولهم : ذهبتُ إلى أبو زيد ، ورأيتُ أبي عمرو))[16] ، فالعرب الفصحاء طبقة من طبقات المجتمع اللساني الواحد ، لهم استعمالهم اللغوي المتداول بينهم ، وفقاً لمجموعة المشيرات الاجتماعية ، المتصلة بهذه الطبقة في التعبير عن الحاجات والمعاني .

2- معطى العقل : يُمارِس العقل عند الجاحظ -بوصفه المعطى الثاني من معطيات تشكّل البيان اللغوي- دوراً ذهنيّاً ؛ وذلك بنقل الحاجات التي يكون عليها الإنسان إلى أصوات لغوية ، يتمّ فيها الربط بين المعنى واللفظ المعبّر عنه ، فهو –أي العقل- المميِّز للإنسان عن باقي الحيوانات الأخرى عند الجاحظ[17] ، وبهِ يتشكل قوام البيان اللغويّ ، وكلّ بيان لغويّ لا يتشكل من خلال معطى العقل فهو خارج فعل البيان ، قال الجاحظ : ((وأبعَدُ فهمِكَ لصوتِ صاحبِكَ ومُعامِلِكَ والمُعاوِن لك ، ما كان صياحاً صِرفاً ، وصوتاً مصمتاً ، ونداءً خالصاً ، ولا يكون ذلك إلا وهو بعيدٌ من المفاهمة ، وعُطلٌ من الدّلالة))[18] ، فهذه الأصوات وإنْ صدرَتْ من الإنسان ، وتخلّقتْ في جهازه النطقيّ ، إلا أنّها أصوات غير لغويّة ؛ فما كان صياحاً صرفاً ، وصوتاً مصمتاً لم يصدر عند الجاحظ من المعطى الثاني من معطيات تشكل البيان اللغوي ، وهو المعطى العقليّ ؛ يدلّ على هذا الفهم قولُ الجاحظ : (صوتاً مصمتاً) ، والمُصمَتُ في اللّغة ((الَّذي لا جَوْفَ لَه))[19] ، ومن ثَمّ يكون الصوت المصمَت : هو الصوت الذي لا جوف له ، أي لا عقلَ له ؛ لهذا فهو عُطْلٌ من الدّلالة ، ومصدر هذا العطل عند الجاحظ هو عدم تشكّل هذا الصوت من معطى العقل ، الذي يُحوّل الصوت غير اللغويّ إلى صوت لغويّ دالّ على معنى .

3- مُعطى الاستطاعة : وهذا معطىً يمثل عند الجاحظ حلقة وصل بين : العقل، واللّغة ، أي بين : الإمكان والتحقق ، أو بين القدرة والفعل ، فهي –أي الاستطاعة- تتصل بالقدرة العقلية من جهة ، واللغوية من جهة أخرى ، فأما اتصالها بالقدرة العقلية ، فقد عبّر عنه الجاحظ بقوله : ((إن الفرق الذي بين الإنسان والبهيمة ، والإنسان والسّبُع والحشرة ، والذي صيَّر الإنسان إلى استحقاق قول الله عزّ وجلّ : ((وسخّرَ لكم ما في السماواتِ وما في الأرضِ جميعاً منه))[20] ليس هو الصورة ، وأنه خُلق من نطفة ، وأن أباه خُلق من تراب ، ولا أنه يمشي على رجليه ، ويتناول حوائجه بيديه ؛ لأنّ هذه الخصال كلّها مجموعة في البُلْه والمجانين ، والأطفال والمنقوصين . والفرق الذي هو الفرق إنما هو الاستطاعة والتمكين . وفي وجود الاستطاعة وجود العقل والمعرفة ، وليس يوجِب وجودُهما وجودَ الاستطاعة))[21] . يُفهم من هذا النص أن الاستطاعة / القدرة العقلية ، مفهوم متصل بالقدرة الإنجازية لجميع الأفعال الإنسانية ، منها الفعل اللغوي ، ولا بد لهذا الفعل المنجَز من قصدٍ عقلي ، وإلا فجميع الأنواع الحيوانية ، كالبهيمة ، والسبُع ، والحشرة ، والأنواع الإنسانية المنقوصة العقل ، كالبُلْه ، والمجانين ، والأطفال ، ومن باقي الأنواع الموصوفة بنقص العقل ، يشتركون مع الإنسان في الاستطاعة ، أو القدرة على إنجاز الفعل ، كالمشي ، والأكل ، وإصدار الصوت ، وإنما الفرق عند الجاحظ في الاستطاعة العقلية ، أي القدرة على إنجاز جميع الأفعال الإنسانية –ومن بينها الفعل اللغوي- المبنيّ على القصد العقلي .

أما اتصال الاستطاعة بالقدرة اللغوية ، فقد عبّر عنه الجاحظ بقوله : ((اللّغاتُ إنما تَشتدُّ وتَعسُر على المتكلّم بها ، على قَدر جهلِه بأماكنِها التي وُضِعت فيها))[22] ، يظهر من هذا النص أن الاستطاعة اللغوية عند الجاحظ تتصل بإمكانيات المتكلم اللغوية ، بِعَدّ اللغة أداةً لنقل استطاعة المتكلم العقلية ، فإنها –أي الاستطاعة / القدرة اللغوية- عند الجاحظ تتصل بالإمكانيات اللغوية المخزونة في عقل المتكلم ، والكافية لتحويل المعنى القادم من الاستطاعة

DOI: 10.33193/IJoHSS.18.2021.181

المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
International Journal of Humanities and Social Sciences
website:www.ijohss.com
Email:editor@ijohss.com
ISSN: 2415 – 4822
العدد (18) يناير 2021
Volume (18) January 2021
IJOHSS

العقلية إلى صوت، ومن ثَمَّ إلى فعل لغوي منجَز ، فدور الاستطاعة اللغوية عند الجاحظ يقوم على إتمام عمل العقل ، وجعل الرموز الصوتية دوالّاً على المعاني التي يريد العقل التعبير عنها ، أو بمعنى أصحّ : نقل اللغة من مستوى الممكن الكامن في الاستطاعة العقلية ، إلى مستوى التحقق المحسوس والمنجز بالفعل ، الكامن في الاستطاعة اللغوية[23] .

والمُلاحظ في معطى الاستطاعة أو القدرة عند الجاحظ أنه لا يقارب مفهوم القدرة competence عند تشومسكي chomiskt ؛ لأنّ الاستطاعة عند الجاحظ لا تقتصر على اللغة في جانبها الموجود في العقل فقط[24] ، بل هي أساس لجميع المعارف الإنسانية ؛ فهي تمثل طاقة العقل المعرفية للإنسان ، ومنها الطاقة اللغوية ، هذا من جهة ، ومن جهةٍ أخرى فإن مفهوم القدرة عند تشومسكي مفهوم تجريدي مثالي ، لا يوجد له إنجاز محسوس في الواقع ، أمّا مفهوم الاستطاعة عند الجاحظ فهو على جانبين : جانبٌ ذهنيّ يتمثّل بالاستطاعة العقلية ، وجانبٌ حسيّ يتمثل في إنجاز الفعل اللغوي في الاستطاعة اللغوية .

4- مُعطى التآلف : يقصد الجاحظ بهذا المعطى الجانب الاجتماعي المتداول للاستعمال اللغوي ، الذي ألِفَهُ المجتمع اللساني ، فالفعل اللغوي حين ينتقل إلى الممارسة المنجزة في العملية التواصلية لا بدّ أن يتجسّد في مقام اجتماعيّ ما ، بين متكلّم ومخاطبٍ ينتميان إلى بيئة اجتماعية واحدة ، ومن ثمّ تتمظهر المشيرات الاجتماعية عند الجاحظ كمعطىً من معطيات التشكّل في البيان اللغوي ، بوصفها معياراً تداوليّاً على جميع المعطيات المشكّلة للبيان اللغوي ، من حاجة ، وعقل ، واستطاعة ؛ يدلّ على ذلك صياغة الجاحظ لهذا المعطى بأسلوب التراخي – كما أشرنا من قبلُ- بقوله : (ثمّ ألِفَتْها ، لكانتْ لغةً صالحة الموضِع) ، وهذا يعني أن البيان اللغوي وإنْ توفّرت فيه المعطيات الثلاثة السابقة إلا أنّه يبقى تحت معياريّة المُعطى الرابع المتمثّل بالمشير الاجتماعي ؛ يؤكّد هذا الفهم قولُ الجاحظ: ((كُلُّ كلامٍ خرجَ من التعارُفِ فهو رجيعٌ بَهرَجٌ ، ولغوٌ ساقط))[25] ، فالكلام عند الجاحظ إذا لم يُراعِ مجموعة المشيرات الاجتماعية المتآلف أو المتعارف عليها في المجتمع اللساني ، يوصَف بأنه رجيعٌ بهرَج ، ولغوٌ ساقط ، وهو ما عبّر عنه التداوليون بالفشل اللغوي التداوليّ[26] ، أو اللّحن التداوليّ[27] ؛ ذلك أن الكلام لم يَجرِ على المتآلف أو المتعارف عليه في المجتمع اللساني .

إن المتأمل في معطيات تشكّل البيان اللغوي عند الجاحظ يلحظ أنها تمرّ بمراحل ثلاثٍ ، هي :

1- مرحلة ما قبل الإنجاز ، أو (المرحلة الذهنيّة) : وهذه المرحلة تضمّ معطياتٍ ثلاثة ، هي : (معطى الحاجة ، ومعطى العقل ، ومعطى الاستطاعة في جانبها المتصل بالقدرة العقلية) ، وهي معطيات ذهنية تمثل علاقة البيان اللغوي بالفكر الإنساني .

2- مرحلة الإنجاز اللغوي ، أو (المرحلة الحسيّة) : وتضمّ هذه المرحلة معطى الاستطاعة ، في جانبها المتصل بالقدرة اللغوية ، فالاستطاعة عند الجاحظ –كما مرّ- في جانبها المتصل بالقدرة العقلية سابقةٌ لإنجاز الفعل اللغوي ، وفي جانبها المتصل بالقدرة اللغوية مقترنة بإنجاز الفعل وتجسده في المقام التخاطبيّ .

3- مرحلة ما بعد الإنجاز ، أو (مرحلة المقام الاجتماعي) : وتضمّ هذه المرحلة معطى التآلف ؛ وذلك بعد تجسد الفعل اللغوي في المقام التخاطبي ، يقع تحت معيار المشيرات الاجتماعية المتآلف عليها ، أو المتعارف عليها ، في المجتمع السانيّ ؛ ليكتسب الفعل اللغوي صفة البيان ، وإلا فهو لغوٌ ساقطٌ عند الجاحظ .

DOI: 10.33193/IJoHSS.18.2021.181

المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
International Journal of Humanities and Social Sciences
website:www.ijohss.com
Email:editor@ijohss.com
ISSN: 2415 – 4822
العدد (18) يناير 2021
Volume (18) January 2021
IJOHSS

ويمكن توضيح هذه المراحل الثلاث في المخطط الآتي :

مرحلة ما قبل إنجاز الفعل اللغوي (المرحلة الذهنية) ⟵ الحاجة - العقل - الاستطاعة العقلية

↓

مرحلة الإنجاز اللغوي(المرحلة الحسية) ⟵ الاستطاعة اللغوية

↓

ثمَّ

مرحلة ما بعد الإنجاز اللغوي(مرحلة المقام الاجتماعي) ⟵ التآلف وفقاً للمشيرات الاجتماعية المتداولة في المجتمع اللساني

هكذا يتّضح لنا بصورة جليّة موقع المشير الاجتماعي في معطيات تشكل البيان اللغوي عند الجاحظ ، فالمشير الاجتماعي عنده يقع في مرحلة ما بعد إنجاز الفعل اللغوي ، أو (مرحلة المقام التخاطبيّ) ، وذلك بعد أن تشكّلَ الفعل اللغوي ذهنيّاً ، في مرحلة ما قبل الإنجاز ، من خلال (معطى الحاجة ، والعقل ، والاستطاعة في جانبها العقلي) ، ومن ثمّ تشكّل الفعل اللغوي حسياً ، في مرحلة الإنجاز اللغوي في (معطى الاستطاعة في جانبها اللغوي) ، بعدها تأتي مرحلة ما بعد الإنجاز ، كلحظة تجريب للفعل اللغوي المنجَز ؛ لبيان مدى ملاءَمته للمقام التخاطبيّ الذي تجسّدَ فيه الفعل اللغوي وفقاً للمشيرات الاجتماعية التي تحيط بذلك المقام ؛ ليكتسب عندها هذا الفعل صفة البيان التي هي مقياسٌ عند الجاحظ لمدى ملاءمة الفعل اللغوي للمشيرات الاجتماعية الحافّة بالمقام التخاطبيّ ؛ لذلك قرّر الجاحظ قاعدةً تداولية تنصّ على أن كلّ فعل لغويّ يخرج عن (معطى التآلف) ، وفقاً للمشيرات الاجتماعية المتداولة ، المتعارف عليها في المجتمع اللساني ، فهو فعل لغوي موصوف بأنه لغو ساقط لا يُعتَدّ به ؛ لأنه لا يتساوق مع المشيرات الاجتماعية المتصلة بالمقام في مرحلة ما بعد الإنجاز .

إن رصد الجاحظ الدقيق لمعطيات التشكل الذهني ، وبيان علاقة اللغة والفكر والقدرة العقلية ، وبيان موقع المشير الاجتماعي ، وأثره في الفعل اللغوي المنجَز في المقام التخاطبي ، يقارب بصورة واضحة ما نصّ عليه كلٌّ من اللسانيّ البريطاني ديردر ولسن D.wilson ، واللساني الفرنسي إن سبربر D.sperber ، بإيحاءٍ من عالم النفس الأمريكي جيري فودور G.fodor ، في الربط بين البنيات الدماغية وكيفية اشتغالها ، بدءاً من المعنى المتصل بالحاجة ، ومروره بالعقل الذي يحوّل المعنى إلى رموز صوتية في لحظة الإنجاز اللغوي ، ومن ثمّ بيان مدى ملاءمة الفعل اللغوي المنجز للمقام التخاطبيّ ، والمشيرات الاجتماعية المرتبطة بالمقام ؛ لِيُعلِنا عن نظريّتهما التداولية المعرفية ، وهي (نظرية الملاءَمة) التي ترصد العمليات الذهنية المسؤولة عن إنتاج الفعل اللغوي ، ومن ثم الكشف عن مدى ملاءمة الفعل اللغوي للمشيرات الاجتماعية المحيطة بالمقام التخاطبيّ[28].

وقد تنبّهَ الجاحظ على أن المشير الاجتماعي يكون على نوعين ، هما : المشير الاجتماعي العامّ ، والمشير الاجتماعيّ الخاصّ ، وأكّد الجاحظ على ضرورة الأخذ بهما عند تشكيل البيان اللغوي ؛ تحقيقاً لمبدأ الملاءمة والمشير الاجتماعي المحيط بالمقام التخاطبي .

فأمّا المشير الاجتماعي العامّ عند الجاحظ فهو : المشير الذي يشترك فيه جميع الناطقين المنتمين إلى بيئة لغوية واحدة ، في مجتمع لساني واحد ، وذلك بحسب الأعراف الاجتماعية المتداولة في استعمال اللغة ، قال الجاحظ في باب (مخاطبة العرب وبني إسرائيل في القرآن الكريم) : ((ورأينا الله تبارك وتعالى، إذا خاطب العربَ والأعرابَ ، أخرج الكلام مُخرَجَ الإشارة والوحي والحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم ، جعله مبسوطاً ، وزاد في الكلام . فأصوبُ العملِ اتِّباعُ... والأخذُ بما عليه الجماعة))[29] ، فتفسير الجاحظ للإيجاز والإطناب في الخطاب القرآنيّ واردٌ من رصدٍ دقيق للمشيرات الاجتماعية العامة في المجتمع اللساني ، بل إن المشير الاجتماعي العام كان الموجه الأساسي لكيفية تشكل الفعل اللغوي في الخطاب القرآني ؛ فاللهُ عزّ وجلّ قد صاغ خطابه الكريم بما يحقق ملاءمة الاستعمال اللغوي وأعرافه المتداولة ، المتعارف عليها بين أبناء البيئة اللغوية

DOI: 10.33193/IJoHSS.18.2021.181

المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
International Journal of Humanities and Social Sciences
website:www.ijohss.com
Email:editor@ijohss.com
ISSN: 2415 – 4822
العدد (18) يناير 2021
Volume (18) January 2021
IJOHSS

الواحدة ، فمال الخطاب القرآني إلى الإيجاز وخروج الكلام مخرج الإشارة والوحي عند مخاطبة العرب ، ومال إلى الإطناب عند مخاطبة بني إسرائيل ؛ وعلّة اختلاف الخطاب وكيفية إنجازه عند الجاحظ ناتجة من المشير الاجتماعي العام الموجّه لأعراف الاستعمال اللغوي .

أما المشير الاجتماعي الخاص عند الجاحظ فهو : المشير الذي يكون حكراً على فئات و طبقات اجتماعية دون غيرها ، ومثال ذلك عند الجاحظ اللهجات المهيمنة ، والمصطلحات التي يستخدمها العلماء داخل الحقل الأكبر – اللغة- للتعبير عن المفاهيم المتفق عليها بينهم ، قال الجاحظ : ((وأهلُ الأمصار إنما يتكلمون على لغة النازلة فيهم من العرب ، ولذلك تجد الاختلاف في ألفاظٍ من ألفاظ أهل الكوفة والبصرة والشام ومصر))[30] ، وفي هذا النص تظهر مراعاة الجاحظ للاستعمال اللغوي المنتمي إلى فئة اجتماعية دون الأخرى ، وفقاً للمشيرات الاجتماعية الخاصة بكيفية استعمال اللغة ، هذا الاستعمال الذي يختلف من لهجة إلى أخرى.

أما المشير الاجتماعي الخاص المتصل بمصطلحات العلماء ، فمثّلَه قولُه : ((ألا ترى أنّ كتاب المنطِق الذي قد وُسِمَ بهذا الاسم ، لو قرأتَهُ على جميع خُطباء الأمصار وبلغاءِ الأعراب ، لما فَهِموا أكثرَه ، وفي كتاب أُقْلِيدِسَ كلامٌ يدور ، وهو عربيٌّ وقد ، لو سمِعَهُ بعض الخطباء لما فهمه ، ولا يمكن أن يُفهّمه من يريد تعليمه ، لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر ، وتعوّد اللفظ المنطقيّ الذي استُخرِج من جميع الكلام))[31] ، فالجاحظ نظر إلى المصطلحات بأنها ألفاظ متداولة في طبقة اجتماعية دون الأخرى ، ناظراً إلى المشير الاجتماعيّ الخاصّ ، المتصل بالمستوى الثقافيّ ، وأثر هذا المشير في فهم الخطاب ، فمصطلحات المنطق ألفاظ متداولة في طبقة المناطقة ، دون طبقة الأعراب البلغاء ، وخطباء الأمصار ، فإذا استعملتْ هذه الألفاظ مع طبقة المناطقة حققتْ فعلاً تواصلياً ناجحاً فعالاً ؛ لأنها وافقت مشيرهم الثقافي الخاص . أما إذا استعملتَ هذه الألفاظ مع طبقة الأعراب البلغاء والخطباء فإنك تحقق فعلاً تواصلياً موصوفاً بالفشل التداولي ؛ لأن هذه الألفاظ لا تتفق ومشيرهم الاجتماعي والثقافي .

ممّا تقدّم يمكن القول إنّ المشير الاجتماعي بنوعيه : العام ، والخاص ، عند الجاحظ ، يقع في مرحلة ما بعد الإنجاز الفعلي للّغة ، وهذا المشير عند الجاحظ يقوم بوظيفة تداولية ، قوامُها : قياس ملاءمة الفعل اللغوي بيانياً ، والمشيرات الاجتماعية الحافة بالمقام التخاطبي ، هذه المشيرات التي تختلف من أمة إلى أخرى ، ومن لهجة إلى أخرى ، ومن طبقة ثقافية إلى أخرى ، وهذا يقارب مفهوم الكفاية التداولية الذي صاغَهُ التداوليون ، والذي يتجلى في مساعدة المتكلم على فهم الكيفية الملائِمة التي يمكن أن تُستعمَل بها العبارة اللغوية في المقام التخاطبي، وفقاً لأعراف المشيرات الاجتماعية المتداولة في استعمال اللغة في المجتمع اللساني[32] ، ويقارب أيضاً حقيقةً تبنّتْها اللسانيات الاجتماعية ، تنصّ على تعدّد الاستعمال اللغوي للّغة الواحدة من مجتمع إلى آخر ، ومن مستوى ثقافي إلى آخر ، ومن طبقة اجتماعية إلى أخرى ، فاللسانيات الاجتماعية هي التي تتخذ من تنوع الاستعمال اللغوي ، واختلاف أشكاله في المجتمع الواحد موضوعاً لها ، وفقاً لأبعاد المشيرات الاجتماعية التي تتصف بالتنوع من فئة اجتماعية إلى أخرى[33] .

ثانياً : في الفعل البيانيّ :

إنّ المتأمّل في معطيات تشكل البيان اللغوي التي ذكرناها في المحور السابق يجد أنّ نظرة الجاحظ للبيان – بوصفه فعلاً منجزاً في عملية تواصلية تقوم على وظيفة الفهم والإفهام- لا تقتصر على التحقق اللغوي فقط ، وإنما هو –أي البيان- فعلٌ شامل لكل وسيلة تواصلية يقوم بها الإنسان بقصد التواصل مع الآخر ، من نحو : الإشارة ، والخطّ ، والعقد ، والنِّصبة[34] ، شرط أن تنطبق عليها معطيات التشكل البياني : (الحاجة ، والعقل ، والاستطاعة ، ثم التآلف) ، بوصف المُعطى الأخير مشيراً اجتماعياً يمثل تداول الفعل البياني عن طريق الاستعمال ، ومن ثم التعارف أو التآلف في المجتمع اللساني ؛ لذلك نجد الجاحظ قد وسَّع مفهوم البيان إلى حدوده القصوى ، ليشمل كلّ وسيلة تواصلية قادرة على الكشف عن المعنى ، وحمله إلى المخاطب ، وتحقيق غاية البيان القائمة على إفهام المخاطب ما يريد المتكلم إيصاله ، والتعبير عنه[35] .

فالفعل البيانيّ بجميع وسائل إنجازه عند الجاحظ لا بدّ أن يصدر من المعطى الأول من معطيات التشكل البياني ، ألا وهو معطى الحاجة ، بوصفه معطىً يمارس بأنواعه المتعددة ضغطاً على الإنسان لأن يكون اجتماعيّاً ؛ لذلك قال الجاحظ في باب (كون الاجتماع ضرورياً) : إنّ الله جلّ جلالُه ((جعلَ الحاجةَ حاجتَين : إحداها قِوامٌ

DOI: 10.33193/IJoHSS.18.2021.181

المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
International Journal of Humanities and Social Sciences
website:www.ijohss.com
Email:editor@ijohss.com
ISSN: 2415 – 4822
العدد (18) يناير 2021
Volume (18) January 2021
IJOHSS

وقُت ، والأخرى لذّةٌ وإمتاع وازديادٌ في الآلة ، وفي كلّ ما أجذَلَ النفوس ، وجمع لهم العتاد . وذلك المقدار من جميع الصّنفَين وفقٌ لكثرة حاجاتهم وشهَواتِهم ، وعلى قدر اتساع معرفتهم وبُعْدِ غَورهم ، وعلى قدر احتمال طبع البشريّة وفطرة الإنسانيّة))[36] ، أي إنّ الحاجة عند الجاحظ على نوعين ، الأولى : حاجة مادية ، متعلقة بقوت الإنسان من مأكل ومشرب وغيرها ، والأخرى: حاجة ذهنيّة ، وهي على نوعين أيضاً : حاجة نفسية ، وحاجة عقلية ، فاللّذّة والإمتاع ، والشهوة مفاهيمُ متصلة بالنفس الإنسانية ، والآلة ، وازديادها ، والمعرفة مفاهيمُ متصلةٌ بالعقل الإنسانيّ ، وهذه الحاجات المادية ، والنفسية ، والعقلية عند الجاحظ تتحقق ربطاً بالفطرة والطبيعة التي يكون عليها الإنسان في زيادة إحدى الحاجات على الأخرى .

ولا بدّ لهذه الحاجات التي وضعها الله عزّ وجلّ في الإنسان من فعل بياني يعبِّر عنها ، يتصف بوسائل إنجازية متعددةٍ تعدّدَ الحاجات ؛ لجهة الإخبار عنها، أو الإشارة إليها ؛ لذلك نصّ الجاحظ في باب (البيان ضروري للاجتماع) على أن الله ((لم يرضَ لهم من البيان بصِنفٍ واحد ، بل جمع ذلك ولم يُفرّق ، وكثَّرَ ولم يُقلّل ، وأظهرَ ولم يُخفِ ، وجعلَ آلة البيان التي بها يتعارفون معانيَهُم ، والتَّرجُمانَ الذي إليه يرجِعون عند اختلافهم ، في أربعة أشياء ، وفي خصْلةٍ خامسةٍ ... وهذه الخصال هي : اللّفظ ، والخطّ ، والإشارة ، والعقْد ، والخصْلة الخامسة ما أوجدَ من صحّة الدلالةِ ، وصدقِ الشهادةِ ، ووضوحِ البرهان))[37] .

يتّضح من هذا النص أنّ الإنسان مُنِح –بحسب الجاحظ- مجموعةً من الوسائل الدلالية القادرة على إنجاز الفعل البياني عن المعنى المتّصل بالحاجة ، ولكن على الرغم من أن معطى التعبير عن الحاجة هو المعطى الأهمّ من معطيات تشكل فعل البيان عند الجاحظ ، فإنه لا يُعدّ مزيّةً لفرادة الإنسان عن الحيوانات الأخرى ؛ حيث تدلّ الملاحظة المباشرة لسلوك الحيوانات الصوتي والحركي على أنها تمتلك أنظمة تواصلية دقيقة جدّاً ، قائمة على طبيعة الحيوانات الغريزيّة[38] التي تُنتج العديد من الأصوات ، والإشارات ، والحركات ؛ للتعبير عن حاجاتها البايلوجية والشعورية المختلفة ، إلا أنّ الجاحظ نظر إلى التعبير عن الحاجة عند الإنسان على أساس من اختصاصه بالعقل ، والاستطاعة ، وهما المعطيان الثاني والثالث من معطيات تشكل الفعل البيانيّ ، بقوله : ((إنّ الإنسان إنما قيلَ له العالَمُ الصغيرُ سليلُ العالَم الكبير ؛ لأنه يُصوّر بيديه كلَّ صورةٍ ، ويحكي بفمِه كلّ حكاية ، ولأنّه يأكل النّباتَ كما تأكل البهائم ، ويأكل الحيوان كما تأكل السّباع ، وأنّ فيه من أخلاق جميع أجناس الحيوان أشكالاً . وإنما تهيّأ وأمكنَ الحكاية لجميع مخارج الأمم ، لما أعطى الله الإنسان من الاستطاعة والتمكين ، وحين فضّلَه على جميع الحيوان بالمنطق والعقل والاستطاعة . فبطول استعمال التكلّف ذلّتْ جوارحُه لذلك))[39] .

يدلّ هذا النص دلالة واضحة على أن الجاحظ ينطلق في رصد معطيات تشكل الفعل البياني عند الإنسان من عمق معرفيّ وعقديّ[40] ، يتعلّق بتحقيق وجود الإنسان في الكون من خلال فعل البيان بجميع وسائله الدالّة ، من لفظ ، وخطّ ، وإشارة ، وعقد ، ونصبة . ففعل البيان عند الجاحظ هو الذي يُحقق وجود الإنسان كـ(عالَم صغير) في الكون الذي هو (العالَم الكبير) ؛ لِما يُتيحه فعل البيان من قدرة تعبيريّة عن المعنى ، فالإنسان يتكلّم بفمِه كلّ لغة ، ويشير بيدِه إلى كلّ معنىً يريد التعبير عنه ، وإنما أمكنَه ذلك لما منحَهُ الله من العقل ، ومن الاستطاعة على إعمال العقل من جهة ، وإنجاز ما يريده من جهةٍ أخرى . فالعقل والاستطاعة عند الجاحظ معطياتٌ بيانيّة ذَلّلتْ للإنسان كلّ قدراته البيانيّة ؛ للتعبير عن حاجاته ومعانيه ، ومن ثَمّ تحقيق كينونته في هذا الكون ؛ فلَئِن اندرجَ الإنسان في جنس الحيوانات تبعاً لمقتضيات التصنيف ، فإنه عند الجاحظ ينفصل عن الحيوانات الأخرى بفعل البيان ووسائل إنجازه الدلاليّة المتنوّعة ، هذا الفعل المتشكّل من مُعطَيَي العقل والاستطاعة ، فيكون فعل البيان وتشكله من معطى العقل والاستطاعة العقلية والإنجازية لوسيلة البيان هو جوهر الإنسان (العالَم الصغير) ، والمحقق لكينونته في (العالَم الكبير) .

وهذا البناء الفكريّ عند الجاحظ يستدعي المعطى الرابع من معطيات تشكّل الفعل البياني ، وهو معطى المشيرات الاجتماعية ، وأثرها في تشكّل فعل البيان المنجَز ، قال الجاحظ في باب (الرقوم والخطوط) : ((وكلُّها صورٌ وعلاماتٌ وخَلْقٌ مواثل ، ودلالاتٌ ، فيعرف منها ما كان في تلك الصور لكثرة ترددها على الأسماع ، ويعرف منها ما كان مصوّراً من تلك الألوان لطول تكرارها على الأبصار ، كما استدلّوا بالضحك على السرور ، وبالبكاء على الألم . وعلى مثل ذلك عرفوا معانيَ الصوت ، وضروبَ صور الإشارات ، وصور جميع الهيئات))[41] .

DOI: 10.33193/IJoHSS.18.2021.181

المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
International Journal of Humanities and Social Sciences
website:www.ijohss.com
Email:editor@ijohss.com
ISSN: 2415 – 4822
العدد (18) يناير 2021
Volume (18) January 2021
IJOHSS

يظهر من هذا النص نظر الجاحظ التداولي لوسائل الفعل البياني ، وفقاً للمشير الاجتماعي المتعارَف عليه عند أبناء المجتمع اللساني في استعمال كلّ وسيلة من وسائل الفعل البياني ؛ فنحن أمام رصدٍ دقيقٍ للعلاقة القائمة بين دلالة الفعل البيانيّ ، والمشير الاجتماعيّ المتعارف عليه في الاستعمال المتداول لوسائل الفعل البيانيّ عند أبناء المجتمع اللسانيّ .

ولنسجّل أولاً وصف الجاحظ لجميع وسائل الفعل البياني على أنها : (صورٌ وعلامات) ، بما يؤكد لنا قِدم سبق الجاحظ لأصحاب نظرية العلامات أو السيميولوجيا ، الذين تعاملوا مع جميع أنظمة التواصل اللفظية وغير اللفظية أنّها علامة دالّة في مجتمع لساني ما[42] ، وهذا يطابق تماماً ما نصّ عليه الجاحظ ؛ ذلك أنّ الجاحظ ينظر إلى جميع وسائل الفعل البياني اللفظية وغير اللفظية أنّها صور وعلامات تدلّ على معنىً يُعرف من كثرة الاستعمال والتداول على أسماع المجتمع اللسانيّ وأبصاره ، فاللفظ يأخذ دلالته من كثرة استعماله وترداده على الأسماع ، والخطّ ، والإشارة ، والعقد ، والنّصبة (الهيأة) ، كلّها تأخذ دلالاتها من كثرة استعمالها وتكرارها على الأبصار ، فتتحول دلالة الفعل البياني لكثرة الاستعمال، والتداول المتمثل بـ(الترداد ، والتكرار) على أسماع المجتمع وأبصاره إلى مشير اجتماعي ؛ فالضحك عند الجاحظ مشير اجتماعي على معنى السرور، والبكاء عنده مشير اجتماعي يدلّ على الألم ، وإنما خُصّت علامة الضحك وصورة البكاء بهذين المعنيين ؛ لكثرة استعمالها وتداولها عند أبناء المجتمع الواحد بمعنى السرور والألم ، ومن ثَمّ يصوغ الجاحظ قاعدة سيميولوجية لا تبتعد كثيراً عمّا قال به علماء السيميولوجيا الاجتماعية ، وعلى رأسهم دي سوسير ، تنص على أن كل وسائل الفعل البياني هي مشيرات اجتماعية ، تأخذ دلالاتها من كثرة الاستعمال والتداول عند أبناء المجتمع اللساني الواحد ، كما هو واضح من قوله : (وعلى مثل ذلك عرفوا معانيَ الصوت ، وضروبَ صور الإشارات ، وصور جميع الهيئات) ، ويمكن توضيح ذلك في المخطط الآتي :

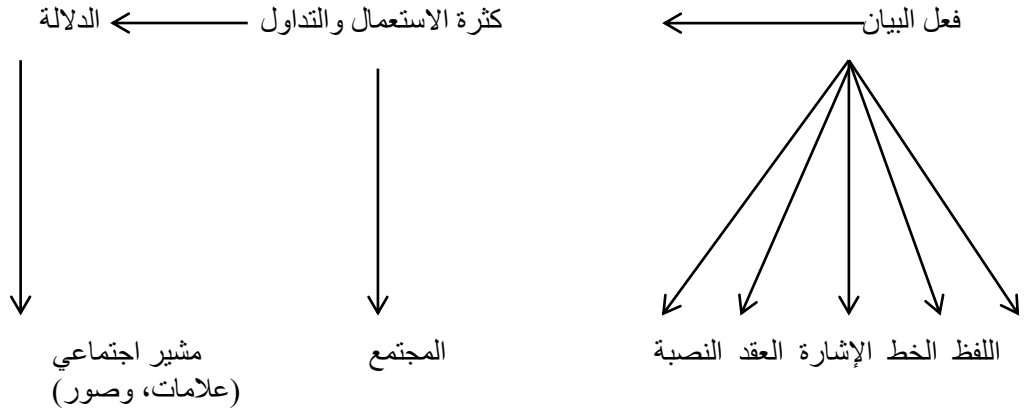

إنّ الفعل البيانيّ المنجَز بإحدى الوسائل اللفظية وغير اللفظية يتحوّل بسببٍ من كثرة الاستعمال والتداول في المجتمع اللساني إلى مشير اجتماعيّ (علامات ، وصور) ، يأخذ دلالته ممّا تعارف عليه أبناء المجتمع عند استعمالهم الفعلَ البيانيّ .

الخاتمة

يتّضح ممّا سبق ذكرُه أنّ الفعل البياني المنجَز من معطيات التشكل البياني (الحاجة ، والعقل ، والاستطاعة) لا تتكوّن دلالته عند الجاحظ إلا بكثرة الاستعمال والتداول عند أبناء المجتمع الواحد ، ومن ثمّ تتحول دلالة الفعل البياني المنجز بأية وسيلة لفظية أو غير لفظية ، إلى مشير اجتماعي يدلّ على معنىً متعارَف عليه عند مستعمِلي

DOI: 10.33193/IJoHSS.18.2021.181

المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
International Journal of Humanities and Social Sciences
website:www.ijohss.com
Email:editor@ijohss.com
ISSN: 2415 – 4822
العدد (18) يناير 2021
Volume (18) January 2021
IJOHSS

الفعل البياني في المجتمع اللساني الواحد ، وهذا يقارب بصورة جلية ما نصّ عليه علماء السيميولوجيا الاجتماعية الذين أشاروا إلى ضرورة دراسة المشيرات التواصلية في المجتمع ؛ لأن معنى (مشير) ما لا يمكن الكشف عنه إلا في ضوء التداول الاجتماعي لهذا المشير[43] ؛ لذلك نجد دي سوسير أول من أشار إلى ضرورة دراسة حياة المشيرات التواصلية في صلب الحياة الاجتماعية[44] ، فيقوم التحليل الإشاري وفق ذلك على وصف العلاقة بين العلامات ومشيراتها الاجتماعية[45] .

الهوامش والمصادر

[1]علم اللغة الاجتماعي ، د.هدسن ، ترجمة : د.محمود عبد الغني عياد : 16 ، وينظر : علم اللغة الاجتماعي ، د. محمد حسن عبد العزيز:25 ، و اللغة العربية في إطارها الاجتماعي ، مصطفى لطفي : 47 .
[2]علم اللغة الاجتماعي ، د.هدسن : 204 .
[3] ينظر : النص والخطاب والاتصال ، د.محمد العبد : 75 .
[4] ينظر : التفكير اللساني في الحضارة العربية ، د.عبد السلام المسديّ : 289 .
[5]الحيوان 42/1 .
[6] المصدر نفسه 44/1 .
[7]الحيوان 42/1 .
[8]افترق الجاحظ عن المعتزلة بآراء خاصة انفرد بها ؛ فعُدّ على أساسها صاحب فرقة اعتزالية نُسبت إليه ، سمّيت بـــ(الجاحظية) ، ومن أهم هذه الآراء مسألة (الجبر ، والتفويض) ، وأن الإنسان مطبوع على المعارف ، ولا يقع منه فعل الاختيار ، وهذا ما نقله عنه أبو الحسن الأشعري . (ينظر: مقالة الإسلاميين واختلاف المصلين ، للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد 47/1 ، و الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ ، د.عبد الحكيم راضي : 291) .
[9] الحيوان 43/1-44 .
[10]الحيوان 44/1 .
[11]المصدر نفسه 290/5 .
[12] ينظر : الأسس المعرفية والمنهجية للخطاب النحوي العربي ، د.فؤاد بو علي : 70 .
[13]نقلاً عن : المنطق : 98/1 .
[14]الحيوان 288/5-289 ، وينظر : البيان والتبيين 70/1 ، وينظر : رسائل الجاحظ 231/4 .
[15] البيان والتبيين 113/1 .
[16]المصدر نفسه 162/1 .
[17]الحيوان 35/1 .
[18] المصدر نفسه 47/1 .
[19] لسان العرب 2494/4 .
[20] الجاثية : 13 .
[21]الحيوان 542/5-543 .
[22]المصدر نفسه 289/5 .
[23]ينظر : الأسس المعرفية والمنهجية : 67 .
[24] ينظر : الألسنية (علم اللغة الحديث) المبادئ والأعلام ، د.ميشال زكريا : 45 ، و الأسس المعرفية والمنهجية : 67 .
[25]رسائل الجاحظ 33/4 .
[26]ينظر : النص والخطاب والاتصال : 65 .
[27] ينظر : الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه ، د.إدريس مقبول : 279 .

DOI: 10.33193/IJoHSS.18.2021.181

المجلة الدولية للعلوم الإنسانية والاجتماعية
International Journal of Humanities and Social Sciences
website:www.ijohss.com
Email:editor@ijohss.com
ISSN: 2415 – 4822
العدد (18) يناير 2021
Volume (18) January 2021
IJOHSS

[28] ينظر : التداولية عند العلماء العرب : 36-37 ، وينظر : التداولية اليوم : 73-74 .
[29] الحيوان 94/1 .
[30] البيان والتبيين 18/1 .
[31] الحيوان 90/1 .
[32] ينظر : التواصل اللغوي ، مقاربة لسانية وظيفية : 42 .
[33] ينظر : علم اللغة مقدّمة للقارئ العربي ، د.محمود السعران : 51 ، و علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية ، د.عبده الراجحي: 24.
[34] ينظر : البيان والتبيين 76/1 .
[35] ينظر : المصدر نفسه : الجزء نفسه والصفحة نفسها .
[36] الحيوان 43/1 .
[37] المصدر نفسه 45/1 .
[38] ينظر : الأسس المعرفية والمنهجية : 60 .
[39] البيان والتبيين 70/1 ، وينظر : الحيوان 213/1 .
[40] ((الإنسان في التصور الإسلامي كائن مكلَّف استخلفه الله لتعمير الرض وزوّده بكل الإمكانيات التي تساعده على القيام بهذه المهمة وتسهلها له ، فمنحه العقل ليميز به الخير والشرّ ، ومنحه قبل ذلك القدرة والاستطاعة ليتمكن من تنفيذ أوامر الله ومن اجتناب نواهيه)) إشكاليات القراءة وآليات التأويل ، د.نصر حامد أبو زيد : 54 .
[41] الحيوان 70/1 .
[42] ينظر : معجم السيميائيات : 91 ، و اللغة وعلائقياتها : 5-6 .
[43] ينظر : معجم السيميائيات : 266 .
[44] ينظر : علم اللغة العام : 34-35 .
[45] ينظر : اللسانيات ، اتجاهاتها وقضاياها الراهنة ، د.نعمان بوقرة : 120 .

DOI: 10.33193/IJoHSS.18.2021.181